

## محاضرة غسان تويني عن "يوحنا الدمشقي وآفاق الحوار" حضارة السلام بديلاً من صراع الحضارات وحوارها



الحضور يتقدمهم البطريرك اغناطيوس الرابع وقد بدأ من اليمين المطارنة بولس بندلي، اسيريديون خوري، الياس قربان، جورج خضر، والي يمين البطريرك كل من المطران الياس عودة، الدكتور ايلي سالم فلامطران جورج ابو زخم.(تصوير وسام موسى)



غسان تويني محاضراً.

ألقى عميد "النهار" الاستاذ غسان تويني محاضرة عن "القديس يوحنا الدمشقي وآفاق الحوار"، مساء الاربعاء في ٤ كانون الاول، في دير سيدة البلمند، في حضور البطريرك الارثوذكسي اغناطيوس الرابع هزيم، ومطارنة من الكرسي الانطاكي، في ما يأتي نصها:

سيدي صاحب الغبطة،

حين أعود أفق محدثاً من على هذا المنبر، تحملني الذاكرة الى محاضرة القيتها من ١٣ سنة، عام ١٩٨٩، في تدشين السنة الاكاديمية الاولى لجامعة البلمند التي كانت آنذاك بالكاد قد انشئت. وكنت لا أزال، على غير استحقاق، نائب رئيس مجلس الامناء، أي نائباً لغبطتكم. وقد أردتم ذلك بفعل من عطفكم وتكريساً لإرث من المحبة مديد الأعوام.

طاب لي آنذاك أن أحيي، كما أحيي اليوم، وجودنا على هذه الهضبة الخضراء، نستظل تاريخاً عربياً، والأبنية من حولنا كانت تشاد وكأنها - قلت - "شهادة في العناد على الخلق المستقيم الرأي، بينما المدائن في وطننا تحترق، والانسان قد جنّ وتجهلّ واستعبد وتهجرّ وتاه".

ايها السادة،

لم أجد أفضل من هذا الاستنكار مدخلاً لموضوعنا الليلة عن "القديس يوحنا الدمشقي وآفاق الحوار". فالجامعة يكتمل بناؤها مرحلة مرحلة، وهي تنعم، في ظل رعاية صاحب الغبطة، بخير رئيس - صديقي الدكتور ايلي سالم - أمن لها القدر الوافر من الازدهار وهو يحرس ثباتها على الايمان بالرسالة الاكاديمية التي اريدت لها.

زينة هذه الرسالة أن نظل نذكر بفرح ونصلي لشفيح معهد اللاهوت الذي انطلقت منه الجامعة، القديس يوحنا الدمشقي، المعلم الانطاكي الكبير الملقب بـ "خريستورواس"، أي "دقاق الذهب" نسبة لفيض قريحته بما هو بمثابة الذهب من الكلام. وفي ابتهاج آخر ليوحنا، هو "ملهم الارثوذكسية والشعلة التي تضيء الكون". حسبنا منه، نحن المسيحيين الانطاكيين، انه، عبر الثقبات التي زلزلت أرضنا والكنيسة، ظل المرجع المسيحي العربي الأعظم، يكرس تقليداً ويرسم للمتأخرين مثلاً: مثال الاشتراك المسيحي الفاعل حتى الشهادة في تكوين الثقافة العربية الاسلامية، بحوارية مبنية على التعمق في معرفة دين "الأخر" واستلهاهم الآخر الجواب بالمثل. وصارت هذه الحوارية - وهي لاهوتية في الجوهر والشكل - أحد منطلقات "علم الكلام" الذي يصح وصفه، متى نضج، باللاهوت الاسلامي.

سيداتي سادتي،

في هذا الزمن الرديء الذي تظله علامتة من يخشى أن تكون "علامتة الآخرة"... تدركون معي لماذا اخترت "آفاق الحوار" موضوعاً لحديثنا عن الدمشقي.

ولست أجد أفضل مطلعاً لحديثنا من هذه الآيات الكريمات التي سبق للسيد البطريرك اغناطيوس أن استلهمها في مقال له عن القديس يوحنا:

من سورة النمل:

"ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وحادلهم بالتي هي أحسن، انك انما تعلم بمن يضر عن سبيله

وهو أعلم بالمهتدين".

وكذلك هذه الآية الكريمة من سورة العنكبوت:

"ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وإلهم وإلهمنا وإلهمك واحد ونحن له مسلمون".

في العهد الأموي الذي ولد فيه يوحنا، وتولى عن والده وجده منصور بن سرجون مسؤوليات كبرى، كانت هذه الروح هي السائدة بين العرب والعرب. أي بين مسيحييهم الذين اتهمهم البيزنطيون بتسليم بلاد الشام، وبين المسلمين الذين ارتاحوا الى المسيحيين فاعطاهم خالد ابن الوليد "أماناً على نفوسهم وأحوالهم وممتلكاتهم وسور مدينتهم". بل وأكثر، لم يكتف الخليفة بائتمانهم أباً عن جد على بيت مال المسلمين، بل مضى يستفيد من خبراتهم في السياسة والإدارة والفنون والآداب، فازدهرت حركة التواصل الاجتماعي والثقافي.

الا أن حوارية العهد الأموي سرعان ما صارت الى الارتباك. والدليل أن يوحنا الذي كان قد كتب ونشر "المئة مقالة في الايمان القويم" لم تحتل الدولة مقاله "الحوار مع أحد الشرقيين" الذي تصدى فيه لمسألة الحرية والقدرة في المسيحية والإسلام. ومع أن بعضهم وصف هذا "الحوار" بالموقف الدفاعي في وجه الزخم التبشيري المستفيد، بطبيعة الحال، من مكانة الاسلام كدين للدولة الجديدة، فقد اضطر يوحنا للتخلي عن مسؤولياته والتسك في دير بعيد، دير مار سابا في فلسطين، حيث انصرف الى تأليف الترانيم والقوانين الكنسية التي لا تزال حية الى عصرنا الحالي.

لم يكن حال يوحنا مع البيزنطيين أفضل. فعند قيام بدعة محاربة الأيقونات، تصدى لها يوحنا فاتهمه الملك بالخيانة وأمر بقطع يده وتعليقها في وسط المدينة. الا أن يوحنا استعاد يده وأصقها بزنده واستلقى على المذبح متضرعاً أمام أيقونة العذراء. وفي التاريخ الكنسي أن العذراء ظهرت له معلنة عودة كفه اليه. وهذا ما تخلده الأيقونة التي تمثل السيدة العذراء بثلاثة أيدي، ثالثها يد القديس الدمشقي.

سيداتي، سادتي

لن أسترسل في الحديث عما تعلمون أكثر مني.

ثم أني أرى عند هذا الحد أن نتوقف عن تأريخ مراحل الحوار المسيحي - الاسلامي، على أن نعود الى الموضوع بعد حين.

### صراعات العولمة

أدعوكم للانتقال مباشرة الى الزمن الرديء الحاضر - على ما نبذل ويبدل المسلمون لتجاوزه بسلام - فننتحدث مباشرة عن " صراع الحضارات" الذي جعله عنوان العصر. "الصراع" هذا أوقع القائلون به أنفسهم، وبالتالي أوقعوا الشرق العربي وديار الاسلام الأخرى في مأزق تاريخية يحاول العالم شرقاً وغرباً الانفكاك منها... هذا بإدانة "الارهاب" وقد أسلموه (والاسلام الحقيقي منه براء) وذلك بالدعوة الى النفاذ الى قواعد القضايا والمآسي التي تجعل أهلها يكفرون، فلا يجدون الى حقوقهم سبيلاً، يائساً، غير العنف، فالارهاب.

وإذا أردنا أن نذهب في الواقعية الى حدّها الأقصى لقلنا إن "صراع الحضارات" كان تفسيراً تبسيطياً لصراعات العولمة - ولا نقول السيطرة على العالم - التي ورثت قرناً عشريناً بلغ فيه التباعد بين المسيحية والاسلام حده الأقصى. وفي جملة مسببات هذا الوضع أن الفكر الانفتاحي الاسلامي كان أسناً في ظل الزهو الامبراطوري العثماني، ثم تحرك مواجهاً للمسيحية التي جاءت في القرن التاسع عشر تبشيرية حينا - بينما المسيحية العربية راكدة وفي سبات عميق - وجاءت أحياناً في زي هوية مميزة للدول المستعمرة.

وأستأذنكم، تدليلاً على ذلك، بالاستشهاد بكلمة عفوية في بساطتها أدرجها الكاتب المغربي، الأستاذ مظهر الملوحي، في التقديم لكتاب عنوانه "قراءة شرقية لإنجيل لوقا" صدر عام ١٩٩٧ قال:

"لقد حدثت فجوة بين رسالة عيسى المسيح (سلامه علينا) التي نادى بها، ومفهومها لدى الانسان العربي، بسبب غربته. وما أعني بغربته هو تبني الغرب للمسيحية. هذا التبني شكل لدى الانسان العربي ردة فعل عنيفة ضد المسيحية أنسته أن عيسى المسيح هو ابن تراثنا، ابن شرقنا، رسالته رسالتنا. ولهذا صرفنا فترة نعيد فيها [قراءة] الإنجيل ومحاولة شرحها بطريقة سلسلة لإعادة مفهوم الرسالة الى موطنها الأصلي حيث يجب أن تكون". ا. هـ. الظروف الموضوعية للحوار

أليس في هذا الكلام، على بساطته الصافية، أبلغ رد على مسلمين جاهليين لا يزالون يظنون أن المسيحيين في الشرق هم من بقايا الصليبيين، ويتعاطون مع المسيحيين، مثل بن لادن، كأنما سيدنا عيسى من مواليد نيويورك، أو باريس؟

سيداتي سادتي،

عند هذا الحد من الحديث، آن الوقت لنحدد ما هي الظروف الموضوعية الحالية للحوار الاسلامي- المسيحي: هل هو بحد ممكن؟ أم هو صار مستحيلًا؟ كيف نسير به؟ هل نستسلم ونتوقف، أم نمضي في الأمل الى حد الشهادة؟ إليكم بعض الأجوبة:

أولاً: الحوار كان قائماً فلا مبرر يمكن أن يردعنا عن الاستمرار فيه وتحديثه، ولو ضاق بنا الأمل أحياناً، فمضينا نكرر العموميات المعميات بما لا يخلو من المجاملة وبعض التكاذب.

ثانياً: من أسباب اليأس تصاعد الأصولية المطلقة منذ طلائع القرن العشرين، عند المسلمين كما عند المسيحيين، ولو في أشكال مختلفة، تراوح بين التزمت الصامت وإعلان الجهاد. وقد بدأ ذلك في مطلع القرن العشرين، عززه تجذر الصهيونية في محيطنا، كحركة تجمع بين الدين وعصبية عرقية تدعي القومية. وقد أدى ذلك الى انتقال عدوى المزج بين الهويتين، في مقاومة الاسرائيلية وأخطارها.

ثالثاً: تنوع الأصوليات وانتظام معظمها في جماعات مسلحة، تُزايد على بعضها البعض. ثم اللجوء الى العنف المطلق من الجانبين، ولو بدون تكافؤ وهو وضع يفرض، لفتح الحوار من جديد، صدمة كونية، ربما من الجانب المسيحي، تكون في حجم الإرهاب، انما بسلام.

رابعاً: تزايد الايمان المتدين في الجانبين المسيحي والاسلامي، وتلبسه في غالب الأحيان هويات اجتماعية بل سياسية تضيق - وهنا المفارقة - مساحة الحوار العقلاني واشكالياته... بالرغم من ازدياد الشوق الى الآخر، في عمق الذات الفردية.

خامساً: تكاثر الصراعات السياسية، كونية واقليمية، بعد انتهاء الحرب الباردة وموت الايديولوجيات، جعل الايمان الديني، ولو بريئاً، يقع فريسة سهلة في متناول الباحثين عن ذرائع لحروب تغطي المصالح الاقتصادية والأهداف الجيوستراتيجية.

سادساً: معاهد وحلقات ولقاءات ومؤتمرات الحوار لا تزال أكاديمية، بل طوباوية. وغالباً ما تنتشر بالمزايدة في الانفتاح بنسبة ما يسكن عقول المتحاورين إفرزات العصبية السليقية. الحاجة ماسة الى حوارات في الحياة حيث لا مكان للغش، عبر المشاركة في أمرين: اختبار العيش والحكم التعددي، أولاً، وثانياً السير في البحث لمعرفة "الآخر" الى حد مناقشة الواحد للاهوت الآخر، والعكس بالعكس. وهذا ما يفرض معارف متبادلة إنما تتوق الى الميتافيزيقية، بمعنى التنازل عن الاقناع، بل عن التبشير، والاكنتفاء بالبحث عن القيم المشتركة التي تصلح دستوراً لحضارة المسالمة الخلاقة ومناقبية الاحترام المتبادل الى حد المحبة.

أيها السادة، أيتها السيدات،

أجدني وصلت الى جوهر الموضوع، فتفرض علينا من جديد شخصية القديس يوحنا الدمشقي أسلوبها: المناقشة العلنية العميقة غير الواجبة للاهوت الاسلامي أي العودة الى شيء من "علم الكلام"، الاسم الآخر لهذا اللاهوت. مبدأ آخر للدمشقي لا حوار يُستأنف بدونه، هو "إحلال العقل في القلب". فالحوار المحض عقلائي يؤدي الى المناظرة، الفلسفية أولاً، فالفسطائية استطراداً، في حين أن فيض القلب وحده يغسل العقول ويجرّها من الجمود المميت، فيمركزها في عمق الطبيعة الانسانية، التي لا تعبير عنها أفضل من "الحوار الكياني الحياتي" كما يقول عزيزنا الدكتور طارق متري.

هل نلحم؟ أم ثمة نماذج تاريخية نستتير بها تبرر الأمل؟

ثمة... ثمة الإمام الغزالي، الذي حذر من "الضلال عن سبيل الحوار السوي" حين قال في مقاله "الرد الجميل لالهية عيسى بصريح الإنجيل" أن اللاهوت المسيحي وقع في خطأين جسيمين: خطأ التقليد وخطأ التفلسف بنصوص الأناجيل الأربعة.

والى الإمام الغزالي، هناك المعتزلة. والى حدّ ما، "اخوان الصفاء". غير أن بحثهم نخشى أن يطول. الا أن ثمة من لا مثيل أفضل منه لأبعاد "وضع العقل في القلب"... عنيت كبير المتصوفين بل الفلاسفة الحواريين حتى مع شخصية الاله: الشيخ ابن عربي، يطلق كالصرخة أبياته التي صارت علامة تعانق ديني يتجاوز الحوار، كمجرد حوار:

"لقد كنت قبل اليوم أنكرُ صاحبي

إذا لم يكن دينه الى ديني داني

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة

فمرعى لغزلان وديرٌ لرهبان

وبيتٌ لأوثان وكعبة طائف

وألواحُ توراة ومصحفُ قرآن

أدينُ بدين الحبّ أتى توجهتُ

ركائبه فالحب ديني وإيماني"

سيداتي سادتي،

ملاحظة شخصية قبل أن نعود نستقرىء التاريخ لماذا كان ابن عربي ممكناً، وصارخاً، في القرن الثاني عشر، ولماذا صارت صرخته "الحب ديني وإيماني" مستحيلة مذكاً لعهدٍ طويل...ولماذا لماذا طويت حواراته الوجدانية والفلسفية قروناً طوالاً؟

أما الملاحظة... الشخصية؟ لا، فقط شخصية بمعنى الإشارة الى شخص كانت له فعاليته الكبرى في موضوع بحثنا. الشخص هو الدكتور قسطنطين زريق، معلّم القومية العلمانية الجامعة. معلّمها لأهل الدينين من أجيالنا المعدّبة...

وقد لا يكون الدكتور زريق هو الذي اكتشف في زمنه الشعر الصوفي، غير انه صاحب الفضل في وضعه - اذا جاز التعبير - في تداول العصر الحديث. وقد جعل أبيات ابن عربي شعراً، بل حجة دامغة بأن الدعوة الى الحوار العربي بين المسلمين والمسيحيين ليس بدعة معاصرة، بل فعل إيمان نادى به كبار المهّمين. والأن، سيداتي سادتي، هيا بنا الى شيء من التاريخ.

في محاضرة رائدة ألقاها في بيروت عام ١٩٨٨١ (في "دار الفن والأدب") يرثب الدكتور طريف الخالدي مراحل الحوار الإسلامي - المسيحي، مُطلقاً على ذلك تسمية "نظرة الاسلام العربي الى اللاهوت المسيحي".

١- "عصر الانتصار"، من القرن الأول للهجرة الى القرن الثالث.

٢- "عصر الفضول"، ينتهي أوائل القرن التاسع، "وكانت المناظرات - والكلام للخالدي - بين المسلمين والمسيحيين قد اتخذت شكلاً رسمياً [بحيث] تعقد في المجالس العامة". وفي هذا العصر، وقعت الحروب الصليبية التي لم تمنع وجود "نظرة الى اللاهوت المسيحي تتسم (يقول الخالدي) بالاعتراف بالتاريخ الواحد الذي نبعت منه المسيحية والاسلام".

٣- "عصر اللامبالاة"، ينتهي مع القرن الثاني عشر، وهو عصر سقوط القسطنطينية (١٤٥٣).

٤- "عصر المجابهة" من القرن الثالث عشر الى الزمن الحالي، وهي المرحلة التي واجه خلالها المسلمون العرب ظاهرتين أدتا الى التباعد، بل العداء: التبشير المسيحي الأوروبي والأميركي والروسي، ثم الاستعمار. ويردد الدكتور طريف الخالدي، عن مرحلة المجابهة، هذا التساؤل يطلقه مفكرو المسلمين فيقولون: "أين كل هذا من المسيحية السّمحاء؟ أين كل ما حدث ويحدث من رحمة المسيح ومحبته؟ فاختلط - يقول - الحب بالبغضاء، والمسيح العربي بالمسيح الغربي وأصبحنا نتأرجح بين التقارب حتى حدّ الالتحام والتباعد حتى حدّ العنف". قبل البحث عن الجواب عن هذا التساؤل الذي هو لبّ الحوار موضوعنا، يجدر بنا التوقف عند عبارة "المسيح العربي"، ماذا هو؟

في نظرنا، هو الظاهرة الحوارية الأغرّب والأدعى الى الاهتمام. فانطلاقاً مما ورد في القرآن الكريم عن السيّد المسيح والنصرانية بنوع عام، هنالك في التراث الإسلامي العربي مادة غزيرة انكبّ على جمع بعضها وتفسيره والتعليق عليه أكثر من لاهوتي ومؤرّخ من المسلمين والمسيحيين (كالأب ميشال حايك). والذي يبدو لنا من هذه المطالعات أن الكلام عن المسيح كان مستمراً عبر مراحل التاريخ الإسلامي بدون انقطاع: في الأحاديث النبوية أولاً، ثم في التفسيرات الأدبية والفقهية، فضلاً عن المتداول من الأناجيل الأربعة المترجمة الى العربية، وعن ترداد ما ورد في كتابات إنجيلية محرّفة.

ولعل ما يفيدنا تسجيله، في محاولة الاطلاع على آفاق الحوار، هو أن صورة "المسيح العربي" كانت ولا تزال تراوح بين الرواية الإنجيلية والصورة الأسطورية، وصولاً في بعض الأحيان الى الحكايات الفولكلورية. والأمر الأهم الواجب تسجيله هو دوام الاحترام في كل صور "المسيح العربي" الى حدّ التحدث عنه في غالب الأحيان على هذا النحو: "عيسى على نبيّنا وعليه السلام". كأنما الإسلام كان بشيء من الاستمرار لا ينكر الوهية المسيح، ولا يناقشها، انما يغالب النفس فيساويه والرسول في النبوة. مثالنا على ذلك ما ورد في احدى الروايات المسلمة عن "دعاء" عليه سمة قرآنية منسوب الى السيّد المسيح عندما أخذه اليهود لصلبه: "اللهم أنت القريب في علوك (...). اللهم خالق الخلق بقدرتك (...). أشهد أنك اله أحد صمد لم تلد ولم يكن لك كفواً أحد".

### المناهل الخمسة

في موازاة الكلام المستمر عن "المسيح العربي" - ونحن ننبني العبارة الخالدية بكل شغف - يجدر بنا التذكّر أن البحث في المسيحية، بدرجات متفاوتة من الدقة والرفعة الحوارية، كان مستمراً في كل المراحل، ومن أبرز المفكرين والفلاسفة والمؤرخين والأدباء والرواة. نسمي منهم على سبيل المثال - بالترتيب الزمني - ولأهمية مساهماتهم في البحث اللاهوتي، هـ كدنا نقفاً، هـ لم لا؟ في "التكامل بين الدينين" متمسكين أدناً بالانطلاقة، بعد



العدالة والحرية، والمساواة في الحقوق التي تجتمع الأديان على الإيمان بها. وفي مقالات قديسنا يوحنا الدمشقي مئة حجة وحجة للمشاركة في الجهاد مع الذات بديل الجهاد للانتصار على الآخر.

سيداتي سادتي،

لا أجد ما أتوجه به ، في خاتمة هذا الحديث، يمكن أن يكون بمرتبة وحقيقة ما جاء عن بصيرة العقل بالقلب في القرآن الكريم، سورة الحج: ٤٦:

"أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور".